لقد أبصرت حلمًا

قراءة في اللغة المنسية

د. فهد حسين
ناقد من البحرين

"هل الأحلام ولغتها تختلف من فرد لآخر وفقًا لمستوياته الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية أو الثقافية"

أصدر الكاتب أريك فروم كتابه (اللغة المنسية.. مدخل لفهم الأحلام والحكايات والأساطير)، وقد أخذ شهرة كبيرة واتساعا كبيرا في التوزيع باللغات، وصدر عن المركز الثقافي العربي في العام ١٩٩٥، بترجمة عربية قام بها حسن قبيسي. ويذكر الكاتب أن الكتاب هو مجموعة محاضرات قدمت في وليام للطب العقلي، ومعهد بيننغتون أمام الطلبة، ومن خلال حيثيات العنوان الفرعي تتمظهر أهداف الكتاب المعنية بفهم لغة الأحلام ودراستها، وليس تفسيرها التي لم يأت على ذكرها، حيث السائد والمشاع بين الناس والباحثين عن مستقبلهم المهلهل في الفضائيات وفي فناجين القهوة وبين جلسات الحظ والشعوذة نجد مفردة التفسير هي الآخذة بقود في كل هذا، أو كما جاء في كتاب ابن سيرين (تفسير الأحلام).

ويؤكد الكاتب واجب علينا جميعًا أن نفهم اللغة التي تعوم في فضاء عالم الأحلام عند الإنسان، فهذه اللغة لا نستطيع أن نصفها باللغة المحكية أو اللغة المكتوبة كما في واقعنا المعيش، وإنما هي لغة أخرى مختلفة تمام الاختلاف عن لغتنا أو أي لغة تتداول بين الشعوب، بمعنى أنها لغة رمزية أو ذات رموز تحمل ما لدى الشعوب والحضارات والثقافات منذ بدء الخليقة وحتى قيام الساعة، حيث تملك هذه اللغة بين جناحيها الخبرات الحميمة والمشاعر والأفكار والمتوقع وغير المتوقع، كما لو هي حالة من حالات المجتمع الواقعي المعيش الحقيقي.

وفي خضم هذا هل الأحلام ولغتها تختلف من فرد لآخر وفقًا لمستوياته الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية أو الثقافية، أو إلى وظيفتها المهنية أو الأكاديمية، أو إلى مجالات تعاطيه في المجتمع إن كان أديبًا أو فنانًا تشكيليًا أو مسرحيًا وغير ذلك؟ هكذا طرح الكاتب سؤاله المتعلق بتلك العلاقة التي تربط الإنسان بتكوينه التعليمي والاجتماعي والثقافي، إذ الحيرة والدهشة داخلتان في سياق السؤال نفسه، فالإنسان يفقد الموهبة التي تجعله يعرب عن حيرته ودهشته سواء عن طريق ذاته أم عن طريق بعض الاختصاصيين الذين تقوم مهنتهم على معرفة ما لا قبل للإنسان بمعرفته، وهذا يعني أن الإنسان نفسه يفقد ملكة الدهشة كلما تقدمت به السن لحضور ما يتوافق وطبيعة المرحلة العمرية المصحوبة بالثقافة والتجربة والخبرة، وهي الداعية إلى رغبة الإنسان فيما هو صحيح وقد يصل إلى الحقيقة من دون الوقوف عند عتبات الدهشة التي هي علامة من علامات الإنسان الأقل عمرًا.

يحلم الإنسان أحلامًا تكاد تكون كل ليلة أو في أي وقت يخلد إلى النوم حتى لو كان قيلولة، فهي أحلام مختلفة المدة والنوع والطرح والأثر، فبعضها قد يكون محزنًا، والآخر مفرحًا، وفي حالة الفرح ترى الإنسان يجهد نفسه في يقظته معرفة الحلم وذيوعه، ولكن إن كان محزنًا تراه يفر منه، ولا يرغب في ذكره أو البوح به، بل استبعاده من ذاكرته ومتخيله. والأحلام لا تخضع لقوانين المنطق التي تحكم فكرنا ووعينا في أثناء يقظتنا، وتجهل أهمية الزمان والمكان، حيث ربما تكون هذه الأحلام ملجأ إلى الحالم ليكون بطلاً، أو يكون ضحية، وربما يقع حدث الحلم أمام ناظريه فيشعر بالسعادة إن كانت منظر هذا الحلم جاذبًا وجميلاً وممتعًا، ويهرب منه إذا كان مصدر رعب وخوف وألم.

وهنا نتساءل هل أحلامنا نحن بني البشر مدعاة إلى الدهشة؟ وهل هي مثار لطرح الأسئلة؟ وبخاصة أننا نبصر أحلامنا وقد لا نفهمها، فعلى الرغم أن الإنسان لا يتعامل مع ما حوله من موجودات مادية ومعنوية كما هي بالفعل، فإنه يمتلك القدرة على التعامل معها بحيث يتمكن من تسخيرها لصالحه قدر الإمكان. وعلى هذا يقول أريك أن الإنسان هو الذي يبتدع حلمه، وهو الذي يقوم بحبكته ولا أحد سواه، لذلك فالأحلام لا تقل أهمية وفاعلية عن أية خبرة من الخبرات التي تحصل لنا في حياتنا اليقظة، وإن كان الحلم اختبارًا راهنًا وواقعًا معيشًا فما هو الواقع هذا الذي يدخلنا الحلم فيه؟ وكيف يتسنى لنا إدراك ما نراه في الحلم ولا يتصف بالواقعية؟ وكأن الحقيقة تقول أن الأحلام هي في الأصل فاقدة الفضاء المكاني المحدد، والزمان المعلوم، وقد يحلم المرء بعالم غير موجود، وربما يدخل الحالم مع حلمه في أزمنة متداخلة بين الماضي والحاضر والمستقبل في آن واحد ومن دون فاصل بينها، وقد يتحول هذا المرء الحالم إلى كائن آخر غير موجود أصلاً لا قديمًا ولا حاضرًا شكلاً وهيئة وماهية.

وبهذا فإن الأحلام هي حالة وقتية تأتي زائرة النائم، فتثير فيه الدهشة أو الحيرة أو السؤال، أو تثير فيه الذكريات والرغبات والأمنيات، لذلك يصحو النائم ويعتقد أن مسوّدة الحلم كلها باتت في متخيله وذاكرته، وعليه أن يقوم بالتبييض، إلا أن أكثر ما حدث في الحلم يخرج من هذه المسوّدة ولا يستطيع الحالم تذكرها، بل قد ينسى الحلم بأكمله. ومن تلك الأشكال التي قد تحضر للنائم في الحلم ما تتقارب والأساطير وما تعبر عنه بوصفها من أقدم الأشكال التعبيرية التي ابتكرها الإنسان لما لبعضها من ارتباط بحياته أو تراثه الديني أو العقائدي أو هي ضمن سياقاته الاجتماعية أو الثقافية، ولكن هذه الأحلام وأيًا كان شكلها وهيئتها فهي خطابات قادمة من الذات إلى الذات الأخرى، وهذا ما يتطلب على الدارس فهم اللغة الرمزية التي نسجت الحلم وباتت متداولة ساعة النوم، وإن لم نستطع فتبقى المعضلة قائمة في فهم العلاقة بين أحلام النوم والواقع المعيش.

طبيعة الكلام الرمزي

مما لا شك فيه أن الصعوبة قد تحدث بين المتحاورين حينما يريد أحدهما إرسال فكرة ما أو قضية ما، أو طرح سؤال ما، كأن

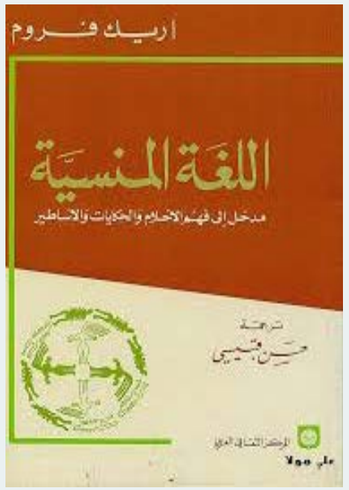

يسأل صديق صديقه عن العطم الأكثر لذة وحلاوة في العنب من خلال اللون، أي يقول الصديق: أياه ألذ عندك، طعم العنب الأحمر، أم الأسود، أم الأخضر، أم الذي يميل إلى الإصفرار؟ وهنا لن يستطيع إعطاء الجواب إلا حينما يتذوق العطم نفسه ليعرف الفرق، بمعنى أن هناك آلية وحالة تفرض وجودها لكي تتم الإجابة واضحة ومفهومة، وهذا ما يحدث في الحلم أيضًا، فهو قد يأتي بلغة معينة وبشكل معين يختلف عن لغة المرء في يقظته، أي لو حلم المرء حلمًا مفزعًا يدور في فضاء الحزن والوحشة والكآبة، فكيف يشرح ويبوح لصديقه ما رآه في الحلم وبخاصة إذا مكفهرة، هنا تحدث الصعوبة في إيجاد اللغة التي تفسر وتشرح رموز الحلم. وإن حاول استخدام لغته الطبيعية فلا شك هي ليست لغة الحلم، وعلى هذا أوضح أريك أن الرموز تأتي في الحلم على ثلاث حالات رمزية، أما الرمز الاصطلاحي التي تعارفت عليه الناس والمعني بالصور والإشارات والرسوم، وحين يستمع في الحلم لما يوحي بأحد هذه الهيئات فالدلالة واضحة عند الحالم؛ لأنها تتحول في ذهنه إلى حروف بلغته تترجم ما رآه، وهذا يعني أن الرمز الاصطلاحي قابل للفهم، أما الرمز العرض وهو الحالة الثانية، فإنه غير قابل للفهم بشكل مباشر من قبل الآخرين، حيث يأتي من تجربة فردية عبر مكان وزمان معينين، وتأتي الحالة الثالثة في الرمز الجامع، وهو الوحيد الذي يبرز في العلاقة بين الرمز والمرموز إليه، لما يقوم به من نسج علاقة عاطفية أو فكرة من جهة، وبين الحدث الذي تدركه الحواس من جهة أخرى، أي أن هذا الرمز هو اللغة المشتركة بين سائر البشر ومتجذر في الخصائص البشرية، فالدم الذي يتدفق في الوجوه في حالات الغضب يكون عند جميع الناس من دون استثناء.

طبيعة الحلم وتفسيره

اختلف المعنيون بالأحلام وتمظهراتها في النوم، وتفسيراتها وتحليلها، إذ يرى البعض أن الأحلام تجربة فعلية خاضتها النفس البشرية، وآخر يرى أنها نفحة من نفحات الإلهام الإلهي، وثالث يراها عمل من أعمال الشياطين، ورابع يراها تعبيرًا عن الأهواء واللاعقلانية، ولكن مهما تباينت هذه الآراء فإن للحلم دلالات ينبغي فهمها إذا امتلكنا مفاتيحها، ففي حالة اليقظة يستطيع المرء أن يسيطر على العالم المحيط به بما لديه من أفكار ورؤى ومشاعر تتسق وتتبرعم لتستجيب بين الحين والآخر للمؤثرات الزمانية والمكانية والحدث المادي أو المعنوي، أما المرء النائم فهو أكثر حرية من المستيقظ ولكن عاجز لأنه لا يتمكن من التعامل مع قوانين الحلم التي تختلف عن قوانين الواقع المعيش.

ويشير أريك إلى أن الحلم لا يقتصر إلقاء الضوء على العلاقات القائمة بين الأنا والآخرين، ولا على إطلاق الأحكام أو التكهنات، بل يقوم أيضًا بعمليات ذهنية قد تكون أرقى من عمليات الذهن المستيقظ، وهنا حاول أريك أن يقدم للقارئ بعض الآراء التي لها علاقة بالأحلام وتفسيرها، وكيفية حضورها في النوم إن كانت ناتجة من خبرات النفس إبان مفارقتها الجسد، أو هي نداء من عالم الأرواح أو الأشباح، كما عرض التفسير النفساني للأحلام الذي يسعى إلى فهم الحلم بوصفه تعبيرًا عن مضمون ذهن الحالم بالذات، وعليه فند تلك النظريات التي تناولت الأحلام كنظرية فرويد التي تشيرإلى أن الأحلام تعبير عن طبيعة الإنسان اللاعقلانية واللاأخلاقية، وكذلك نظرية يونج التي تقول أن الأحلام إلهام يأتينا من حكمة لا واعية، ثم يؤكد على نظريته التي ترى الأحلام نشاطًا ذهنيًا يتم خلال النوم، سواء تعبر هذه الأحلام عن أسوأ ما فينا، أم أفضل.